الفنان التشكيلي مصطفى حيدر

مقياس اللوحة هو الابداع

أعماله الفنية مرآةٌ لنفسه،.. ففي كل لوحة منها نرى صورته،.. نرى قلقه،.. وصفاءه،.. وبالتالي نرى صورة للمجتمع، لأن الفن ليس معطىً مجرداً يوجد في الفراغ،.. إنه قيمة انسانية تحمل خصوصية الوعي،.. بقدر ما يحمل الوعي خصوصية الجماعة.

الفنان مصطفى حيدر، الذي يعرض حالياً في دار الندوة ببيروت مجموعة من اعماله التشكيلية تحت عنوان «مناخات تعبيرية» يؤكد ان اللوحة المبدعة تبقى دائماً خارج الأطر والتقسيمات والتسميات،.. مقياسها الوحيد هو الفن والابداع.. ويؤكد ان الفنان ابن لبيئته ومتحده الاجتماعي،.. فهو بالذات حين يقف أمام القماشة البيضاء يحسّ بأن الريشة التي تصنع إشراقة اللون يحركها مجتمعه... تجتمع في يده الأزمنة وتختصر المسافات.. على هامش معرضه التقيناه وكان هذا الحوار:

■ النظرة العامة الى اعمالك في هذا المعرض توحي بوجود عدة مراحل وأساليب هل تتعمد ذلك،.. ام انك تريد الوصول بالمشاهد الى ان اللوحة هي بالاساس خارج التسميات والاساليب؟..

□ لا يزال الكثيرون ينظرون الى العمل الفني من زاوية التقسيمات الغربية والشرقية، وان هناك تصنيفات مسبقة للوحة والفنان،.. كلنا مررنا في هذه المرحلة،.. لكنني بعد التجربة اكتشفت ان علينا ان نتخطى هذا الامر، ان نكون مع اللوحة بالمطلق بعيدة عن التيارات والتسميات،.. نحن

كفنانين فعلنا ذلك... لكن وللأسف بقي النقد والنقاد خاضعين لتاثير تلك العقلية التي اكل عليها الزمان وشرب.

لم يستطع النقد ان يخرج من «قمقم» وتاثيرات تلك العقلية... ولم يستطع ان يصحو على حقيقة ان زمن الابطال قد انتهى... واننا الآن في عالم جديد وفكر جديد... كل مسعانا هو بناء مجتمع جديد له خصوصيته وهويته الحضارية.. في عاداته وثقافته.. وفي فنونه وابداعه.

ازمة الفن في وقتنا الحاضر هي ازمة عالمية... وعلينا نحن ان نتخطى ما تركه الآخرون... بالنسبة للوحاتي التي اقدمها اعتبر ان ليس فيها اكثر من اتجاه.. ارى انني منسجم مع نفسي... ومع ريشتي. لانني احكي الغضب والحب... احكي فيها الفرح والحزن... احياناً التفت الى الطبيعة فاخذ غنائية الشمس... واحياناً التفت الى ذاتي فارى كم لدي من المعاناة... التي هي انعكاس لمعاناة شعبي ومجتمعي... من هنا ترى في بعض الاعمال رقّة متناهية، وترى في اعمال اخرى قسوةً وألماً، ترى القراءة السهلة لبعض الاعمال... وترى كذلك اعمالاً صعبة القراءة.. لكني لا ارسم بعدة اتجاهات... لوحتي هي هي في كلّ اشكالها وحالاتها لأني انثر على سطحها نفسي... وافرش على سطحها وجعي وفرحي فهي قطعة من نفسي، من يريد الغوص الى اعماقي فليقرأ ما دوّنته النفس على سطح اللوحة.

■ في لوحاتك التي نفذتها «بالأكواريل» شفافية وبوح شاعري على عكس لوحات «الزيت» فهي تحمل الكثير من القلق، هل السبب في ذلك انك تجد لكل مادة لونية ايحاءاتها... ام السبب شيء آخر؟

□ هذا لأنني اقدّم الصدق... ولأنني حين ارسم فانا ارسم اولاً لنفسي وبالتالي فانا ارسم للناس.. ربما لا يعي الناس الماديون معاناة الفنان مع لوحته وكم ينتزع الآخرين من ذاته حين يقوم بعملية خلق اللوحة ليتيح لنفسه محاكاة صافية مع اللوحة...

بعد تجربتي الطويلة مع الفن استطيع القول ان ما يسمى بالمدارس الفنية والتيارات التشكيلية أساءت إلينا كثيراً... وكم كنا محكومين بانك يا فلان إمّا ان تكون تجريدياً او تكون سوريالياً او واقعياً او رمزياً او تكعيبياً.. على العكس.. فحين تتامل الآن اعمالي ترى اني قد جمعت كل تلك الاساليب... وبكل هدوء وصفاء بعمل فني واحد.. ليس هناك مدرسة تتبع لها اللوحة... مقياس اللوحة الوحيد هو الفن، هو الإبداع، فإما ان تحبها او تكرهها.. وإما ان تحس ان هناك تطلعات جديدة وآمالاً جديدة تحمل في دلالاتها الرقي لشعبك ومجتمعك وللشعوب والمجتمعات الأخرى، او انك تردد مثل غيرك اعمالاً... شبيهة بالاسطوانات التي تطبع منها آلاف النسخ وهي واحدة.

انا منسجم مع نفسي ومع ريشتي.

لا ارسم باتجاهات عدة... لوحتي هي ذاتها لأني انثر على سطحها نفسي.

نحن اصحاب ينابيع فلم لا نكتشفها؟!

الفنانون اليوم في كل انحاء العالم يعيشون هاجس ايجاد لغة فنية واحدة... وعبر رؤيتي وتجربتي وترحالي وجدت ان العالم الغربي يعيش جفافاً خانقاً... انهم يتطلعون الى الشرق الذي لا يزال يحتفظ بخامات الجمال والابداع.. يبحثون في كيفية الاستفادة من هذه الخامات ويبحثون في كيفية استخدام عناصره النظيفة لخلق لغة ومفردات جديدة.

لماذا نستهين بانفسنا... لم نبق محكومين بالتبعية انا من الاشخاص الذين يؤمنون باننا نمتلك نظرة خاصة الى الحياة والكون والفن، والجمالية لا حدود لها.. والنور ايضاً ليس له حدود.. وحين اقول النور فانا اقصد المعرفة... ولكي نبني ثقافة مميزة علينا ان نتعب كثيراً، لاننا في هذه المنطقة من الشرق عشنا مراحل عديدة من التفكك والانهيار والاندثار.. وعدمية الثقافة... نستطيع القول عن انفسنا اننا ولدنا من جديد في مسالة الفن.. وهذه المرحلة التي نعيشها اليوم.. هي اكثر المراحل حساسية بتاريخ الفكر لدينا.. لأن هناك عناصر عديدة تختلط لدينا.. منها اننا لا نلتفت للابداع والمبدعين لا نزال نلتفت الى التسميات المسبقة والتقليد... ولا نزال نسلم امورنا لغيرنا.. نحن اصحاب ينابيع فلم لا نكتشفها.. لماذا لا نشجع بعضنا... لنصل معاً الى الابداع..

الفنانون لدينا يعانون من ضعف في فهم تراثهم... وفي استيعاب جماليات طبيعة ارضهم، على الرغم من ان فنانينا خامات جيدة.. فهم حين يقصدون الغرب يبدعون ويتفوقون على الغربيين انفسهم.

حاولت في اعمالي ان اقطف موضوعاتها من عشبة ارضي، من طبيعتها وانسانها... من العفوية التي تحيط بي.. هذه الاشياء.. انصهرت في عمقنا الثقافي فلم نعد بحاجة الى من يعطينا ثقافات

واساليب ومعان... ما اريد ان اعبّر عنه من جمال في فني... هو الدّائقة الجمالية التي علينا كفنانين زرعها عند المواطن العادي... لاننا قبل ان نتحدث عن السياسة والاقتصاد علينا ان نربّي الذوق عند الانسان... فحين يمتلك الانسان ذوقاً سليماً ينطلق في كل مجالات الحياة بشكل طبيعي وسليم. للأسف ان المسؤولين في بلادنا يعتبرون الفنون في آخر مراتب الأهمية على الرغم من انها في قياس الحضارة اساس رقيها ونهوضها.. علينا بالطفل اولاً... علينا بتنمية مداركه واحساسه بالجمال والفن لنمتلك مجتمعاً راقياً منفتحاً على الحياة.

■ أنت كفنان لك تجربتك الطويلة... اين تجد دورك في عملية التوعية هذه؟..

□ دوري كفنان موجود ودائم... رغم كل ما الاقيه من جحود... ورغم ما اعانيه من المحيطين بي... فانا في اشد الأزمات كنت اقيم المعارض... واقيم الدورات الفنية... حتى في اوقات القصف والضرب لم اتوقف عن ذلك... لابقى اقول باننا نمتلك الحق والخير والجمال... كنت اعتقد انني امضي دون ان يشاركني احد مسيرتي... لكني وجدت ان تعبيري هو تعبير عن الكل... وما ارسمه هو نتاج لمجتمع بأسره لهذا فانا حين احمل الريشة واواجه القماشة البيضاء احسّ ان المجتمع بكامله يحرّكها معي لتنبع فوق بياضها اشراقة اللون.

لكن الفنان وحده لا يمكن ان يصنع جيلاً متذوقاً للفن.. على مدارسنا ان تعي ضرورة تعلم الطفل منذ نشاته مبادىء الرسم.. عليها ان تعلمه عشق الجمال.. وعلى المؤسسات التربوية والثقافية ان تعي ذلك ايضاً.. هناك اجيال تكبر وتمضي عليها السنوات دون ان تتقن الفن او قراءة اللوحة... وجدت ذلك ايضاً اثناء علاقتي مع طلابي في مهد الفنون... وجدت ان هناك فرقاً كبيراً بين تجربتنا وتجربتهم.. كنا نحن نقضي اكثر من عشر ساعات من اليوم نرسم خلالها ونجرّب... ونقول ان ذلك الوقت قليل ولا يكفي طلابنا ربما واحدهم لا يرسم في الشهر بكامله ثلاث او اربع ساعات، كيف سيبنى الابداع؟!.

نحن نمتلك نظرة خاصة الى الحياة والكون والفن،.. فلماذا نستهين بأنفسنا.

علينا ان نبدأ بتنمية مدارك الطفل،.. لنحصل في النتيجة على مجتمع راقٍ.

■ إذاً، هناك فرق بين جيلكم الذي حمل الهم الفني والابداعي، ومنحه كل ما يمتلك من معرفة وجهد،.. وفرق بين جيل جديد اخذ تجارب الآخرين دون محاولة الاجتهاد والتجديد،.. ووجد في اساليب الغرب مرجعيته،.. بحيث ان طالب معهد الفنون يعمد بعد تخرجه مباشرة الى رسم لوحة التجريد دون إتقانه رسم منظر طبيعي او بورترية عادية،.. على من يقع السبب في ذلك برأيك؟!.

□ ما تقوله صحيح... جيلنا كان اكثر التزاماً، واكثر محاولةً وتجريباً.. على عكس هذا الجيل... والاسباب كثيرة... هناك محاولات كثيرة تسعى لتغريب فنّنا وثقافتنا وتخريبها كذلك.. البعض يسقط في صرعة التقليد... يلجأ الى ما يعتبره سهلاً الى التجريد... رغم ان التجريد ليس سهلاً على الاطلاق.. يلجأ اليه قبل ان يتقن قواعد الرسم الأولى... قبل ان يتعلم ابسط عناصر اللوحة... وقبل ان يفهم اللون وما يعنيه...

والنقاد ايضاً يتحملون مسؤولية كبيرة في ذلك... على النقاد ان يكونوا اصحاب قضية في الفن... ان يقيّموا ويقوّموا ما يشاهدون لا ان يتحولوا الى تجار... وتتحول اراؤهم الى محاباة فلان والكتابة ضد آخر... لم يعد الناقد ينظر الى اللوحة وما تعنيه.. صار ينظر الى الفنان وما يعني بالنسبة اليه.. وهذا شجّع كثيراً من المتطفلين على الفن لأن يصلوا الشهرة على جناح مديح كاذب لناقد لا يحمل في اعماقه قضية الفن والابداع.

ولو اننا وقفنا قليلاً عند التجريد وبحثنا في اصوله لوجدنا ان ارضنا هي منبته الاول.. «كاندنسكي» حين شاهد نقوش المساجد في بلادنا شاهد فناً لم يعرفه من قبل... فوصفه بانه علاقة الانسان بابعاد الكون... كان يرى من خلال تلك التجريديات نوافذ تنفتح على عوالم لا نهاية لها التجريد نحن صنعناه... لكننا لم نحسن فهمه واستخدامه.. وعلى هذا الاساس.. يسيء الكثيرون من المحدثين رسمه، يعتقدونه هيناً، وهو ليس كذلك. كل الفنانين الكبار من التجريديين... لم يصلوا الى مرحلة التجريد إلاّ بعد مرورهم بمراحل عديدة فيها الواقعية والتعبيرية وفيها المعاناة والاتقان والابداع.. حتى وصلوا الى الاختصار.. الى التجريد الذي هو قمة الاختصار والايحاء.

الشعوب التي لا تمتلك ثقافة فنية تختلط عليها الامور.. تفقد في ازدحام الثقافات خصوصيتها وبصماتها.. وتغدو هشة تتقبلُ كل دخيل ولقيط.■■

حاوره: مردوك الشامي
تصوير: نزيه عساف